المحاضرة الرابعة:

منطلقات السيميائية عند "بيـــــرس"

مثّل الفيلسوف المنطقي **"تشالرز ساندرس بيرس"** (Charles.S.Pierce 1838-1914) الاتجاه الأمريكي، وهو يختلف في دراسته للعلامة عن الدراسة والتصورات التي وضعها "دي سوسير"، "فالسيميوطيقا عند "بيرس" بمثابة بحث رمزي موسع يشمل الدلائل اللسانية وغير اللسانية".[1]

وجعل السّيميوطيقا مدخلا ضروريا إلى المنطق بل حتى أنه جعل منها مرادفا له ، وفي هذا الصدد يقول:"إنّ المنطق بمعناه العام ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا، إنّه النظرية شبه الضرورية أو الشكلية للدلائل".[2] ودراسته للرياضيات والأخلاق والمياتفيزيقا والجاذبية وعلم الأصوات والاقتصاد وتاريخ العلوم... لم تكن بمعزل عن السيميوطيقا [3] عند هذا الرجل، فرؤيته شمولية تمتد لتشمل كل ما تنتجه التجربة الإنسانية، ويرى في كل الأفعال الصادرة عن الإنسان سيرورة بالغة التركيب والتداخل[4]، وهي رؤية فلسفية ظاهراتية أو فينولوجية (Phénoménologie) انعكست على تصوره للعلامة، فالظاهراتية والرياضيات والمنطق في رأي "بيرس" شروط ضرورية توصل إلى الصدق أو علم القوانين الضرورية للفكر التي تجسده العلامات.

التقسيم الثلاثي للعلامـــة (Trichotomie): قسّـم "بيرس" العلامة إلى ثلاثة أقسام: **الممثل–الموضوع–المسؤول،** وهذا التقسيم ناتج عن طبيعة "الفكر البيرسي" وعن خلفياته أو مرجعياته الفلسفية.

([1]) حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، (ط1)،1987،ص:69

([2]) نقلا عن: جميل حمداوي، الإتجاهات السيميوطيقية، (ط1)،2015،ص:16

([3]) ينظر: حنون مبارك، دروس في السيميائيات،ص:17

([4]) سعيد بنكراد، السيميائيات. مفاهيمها وتطبيقاتها،دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا،(ط3)،ص:85

1.الخلفية الفلسفية:

تجمع معظم الدراسات أنّ أثر تصورات "أفلاطون" و"أرسطو" و"كانط" بارزة في الفكر البيرسي، إضافة إلى معلوماته الرياضية والعلمية، وقد اجتهد الباحث المغربي "محمد مفتاح" في كتابه "المفاهيم معالم, نحو تأويل واقعي" في تقسيم مراحل فلسفة "بيرس" فجعلها مرحلتين:[1]

المرحلة الأولـــى"المثالية": ويرصد فيها ثلاث مراحل:

الحقبة الكانطية: واهتمّ فيها "بيرس" بقضايا كثيرة منها العلاقة، والكمية والكيفية والجهة، ولعلّ جذور هذه المقالات ضاربة في عمق الفلسفة الإغريقية، وانتقى منها ما يناسب نظريته وركز على مقولة العلاقة ومقولتي جهتي الإمكان والضرورة، ومقولة الشيء في ذاته.[2]

وأماء "محمّد مفتاح" إلى أنّ "بيرس" درس فلسفة "كانط"، وأعجب بفكرة نقد العقل الخالص وتبناها، وكذا أطروحة "كانط" القائلة بأنّ "وظيفة الوعي هي اختزال تعدد الانطباعات الحسية إلى وحدة".

الحقبة الرياضية المنطقية: وفيها تأثر بالعالم الرياضي "دوبوول"، وخاصة بفلسفته القائمة على ضرورة وجود علاقة بين أطراف ثلاثة، وهي فرضية أطلق عليها "بيرس" "البروتوكول الرياضي"والتي تكون فيها العلامة وفقها ثلاثية ، وقد سبق لـ "بيرس" أن برهن على الطابع الضروري للثلاثية (Trichotomie)، "ذلك بأنه لا يمكن أن نفكر في العدد (X) دون أن نتصور في الوقت نفسه حده، لكن تصور (1) و (2) لوصفهما كيانين منعزلين يستلزم ثالثا من طبيعة أخرى، فإن وجد حدا أو حدين أضيف إليهما ثالث وإن وجد أكثر اختزل إلى ثالث".[3]

([1]) ينظر: فيصل الأحمر، معجم اللسانيات،ص:48

([2]) المرجع نفسه،ص:49

([3]) المرجع نفسه،ص:49

الحقبة التطوريـة: وفيها نتجاوز نظرة "بيرس" للعلامة اللغوية وغير اللغوية، التي تبرز في الحياة الاجتماعية كما يرى "دي سوسير"، بل تخطى ذلك لتشمل الكون كله وما يحتويه، ويرى "محمد مفتاح" أن تشكل الكون والمخلوقات كان هاجسه، فهو متأثر بالطبيعانيين والنظرية التطورية الداوووينية عامة،[1] ويلغي مبدأ الثانية التي تأثر به "دي سوسير" والذي يرى أنّ الكون قائم على مبدأين متعارضين الخير/الشر.

المرحلة الثانيــة "الواقعية": وفيها اقترح "بيرس" قواعد ليصل إلى معنى الكلمات والمفاهيم بطريقة منهجية، وزاوج بين المعرفة العقلية والغاية العقلية، كما اقترح حلول للمسائل الفلسفية الحقيقية معتمدا على الملاحظة، والاستقراء والعلمية والتجريبية.

ويستخلص صاحب معجم اللسانيات أنّ "بيرس" انطلق من فرضيتين اثنتين هما: [2]

فرضية الاتصال: يفترض إنشاء علاقات وترابطات واتصالات، والغاية والمنفعة والعادة والمجتمع منطلقات لخلق الرموز والقوانين، وأجمع الباحثون على تسمية منهجه بـ "الذرائعي الظاهراتي"، وظاهرتي كون الأشياء، حاضرة في الذهن سواء كانت مناسبة لشيء واقعي غير واقعي، إذ تعتمد وصف الأشياء كما هي.

فرضية الاقتطاع: تأتي نتيجة التثليث للأشياء (للأشياء ثلاثة أطراف أساسية)، وهو مبدأ أقره من نظريته الرياضية، ومبدأ أنّ الأشياء تبدأ بالمجرد وتنتقل إلى المحسوس، وكذا مبدأ الاتصال والترابط الذي يستلزم انتظام الكون، ومن ثمّ يصنف جهات الوجود أو ما يسمى بالمقولات الفانيروسكوبية (Phanéroscopie) الثلاث: **الأولانية (Priméité). والثانيانية (Secondéité) والثالثانية (Tiercéite).**[3]

([1]) فيصل الأحمر،معجم السيميائيات، ص:49

([2]) ينظر: المرجع نفسه، ص:50

([3]) المرجع نفسه،ص:51

الأولانية (الوجود النوعي): وتعني وجود شيء في نفسه مربطا بشيء وممتدا في الأشياء المادية أي أنه موضوع/ذات، فلفظ (ش ج ر ة) هو مجرد أصوات مبهمة المعالم، وهي مجرد ظاهر قد يتحقق وقد لا يتحقق مُجسدا.

الثانيانية (الوجود الفعلي): هي كل ما هو موجود في عالمنا الخارجي متجسدا ومحققا أي أنّه الملامح والمعالم المشتركة لمفهوم الأولانية، مثلما نأخذ بيد شخص ونريه شجرة حقيقية في الواقع لينطبق اللفظ المبهم بالصورة الفعلية.

الثالثانية (القانون والضرورة):تربط بين الأولانية والثانيانية، فهي نسق يتحكم في عناصره الموجودة ويستحضر إلى الذهن ما غاب عنها، والثالثانية ليست مفروضة من الطبيعة، ولكنّها فرضت على طبيعة لتحديد اللاّمحدود،[1] أو كما عبّر عنها "سعيد بنكراد":"هي القانون الذي سيحكم الوقائع استقبالا"، فمثلا إذا أشرنا إلى (شجرة) احتمالا لا نكون مع الأولانية، وإذا جسّدناها واقعا تصبح ثانيانيا، أمّا إدراكها وفق القانون ندرك به جميع الأشجار فهي ثالثانية.

العلاقة الثلاثيـــة:

وهي العلاقة التي تجمع بين عناصر العلامة أو ما يسمى بعناصر التدلال، وهي الممثل(Représentant) الموضوع (Objet)والمؤول(Interprétant).

الماثول يحيل على الموضوع عبر المؤول

مؤول

ماثول _____ موضوع

أبعاد العـــلامـــة:

تركّز "سميوطيقا بيرس" على ثلاثة أبعاد رئيسية هي : البعد النحوي، ويسميه "تشارلز موريس"(**Ch Morris**) البعد التركيبي (النظمي) والبعد الدلالي (الوجودي)، والبعد التداولي (المنطقي)، وكل واحد منها يتضمن ثلاث علامات وفيما يأتي بيان ذلك:

([1]) ينظر: محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة، طبعة 1989،الدار البيضاء، المغرب،ص:80

أ. **البعد الأول (التركيبي)**: وهو بعد الممثل (Représentamen)، منظورا إليه في علاقته مع ذاته والممثل _ باعتباره علامة رئيسية_ يتفرع إلى ثلاث علامات فرعية (Sous Signe) تبعا لعلاقته بالمقولات الفانيروسكوبية الثلاث (الأولية/ Priméité، والثانوية/ Secondéité والثالثية /Tiercéité) وذلك على النحو التالي:[1]

العـــلامة الوصفية (Qualisigne): وهي الصفة التي تشكل علامة ولا يمكن أن تشتغل إلّا وهي متجسدة _ماديا_ في العلامة الفردية، ومثال العلامة الوصفية اللون الدال على شيء ما.

العلامة الفردية (Sinsigne): ويعرّفها "بيرس" بأنها "شيء أو حدث موجود وواقعي في شكل علامة"، كما أنّها "موضوع أو حدث فردي".ويمكن أن نمثل لهذه العلامة بالنصب التذكاري أو بعرض (**Symptôme**) داء معين.

العلامـــــة العرفية (Légisigne): هي قانون أو قاعدة أو مبدأ عام في شكل علامة، وتعد أنساق الكتابة الخاضعة لقواعد الصرف والنحو علامات عرفية.

ب. **البعد الثـنائي (الدلالي)**: وهو بعد الموضوع (**Objet**)، ويتعلق الأمر هنا بالعلامة منظورا إليها في علاقتها بموضوعها الذي تحيل إليه، ويتكون هذا البعد من ثلاث علامات فرعية كالآتي:[2]

الأيقونة (Icone): وهي تشبه الموضوع الذي تمثله، يقول "حنون مبارك":" إن الأيقونة صورة تستنسخ نموذجا"، والصورة الفوتوغرافية مثال لهذا النوع من العلامات.

القرينة مؤشر (Indice): وهي تنسج علاقة مباشرة أو ملاصقة مع موضوعها، ومثالها الدخان الذي هو أمارة على وجود النار.

([1]) ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات،ص:54

([2]) المرجع نفسه،ص:55

الرمز (**Symbole**): وهو يحيل إلى موضوعه بفضل قانون أو أفكار عامة مشتركة، وتعد كل علامة تعاقدية (أو اصطلاحية) رمزا، والـــرمز ـباعتباره علامة فرعية ثالثة لبعد الموضوعـ نوعان، أحدهما مجرد (Abstrait)، وهو شكل منحل (Dégénéré) عن الرمز الذي ليس لموضوعه إلا طابع عام، والآخر متميز (Singulier)، وهو شكل آخر منحل عن الرمز الذي يكون موضوعه فردا موجودا، بحيث لا يعني هذا الموضوع إلا الطبائع التي يملكها هذا الفرد.

ج. **البعد الثالث** (**التداولي**): وهو بعد المؤول (Interprétant)، ويخص الأمر هنا العلامة منظورا إليها في علاقتها بالمؤول ويتفرع هذا البعد إلى مؤول أول ومؤول ثان ومؤول ثالث تبعا لنوعية العلاقة التي يعقدها مع المقولات الثالث، وذلك كما يأتي:[1]

الفلدليل (**تصور**)(**Rhème**): ويترجمه "حنون مبارك" "**بالخبر**"، و"السرغيني" بـ"**المسند إليه**"، ويستعمل آخرون مصطلح "**ســـــمة**" مقابلا للفظ الأجنبي (Rhéme)ويقتصر بعض الباحثين على ترجمة هذا المصطلح ترجمة حرفية "**ريم**"، ويقصد بالفدليل في السيميوطيقا البيرسية علامة الإمكانية الكيفية (Possibiqualitative)، أي إنه مدرك باعتباره يمثل هذا النوع أو ذاك من الموضوع الممكن، ويمكن للفدليل أم يمدنا بإخبار (أو معلومة)، إلّا أنه لا يؤول بوصفه شيئا يمدنا بإخبار ما.

العلامـــة الإخبارية (**تصديق**) (**Dicisigne**): وهي تخبر وتعطي معلومة تتعلق بموضوع العلامة، ويعرفها "دولودال" بأنّها "العلامة التي تكون بالنسبة لمؤولها علامة وجود واقعي: إنّها تقد إعلاما يتعلق بموضوعه"، ويمكن أن نمثل لهذه العلامة بالجملة البيانية.

البـرهان (**حجة**)(**Argument**): وهو علامة تشكل بالنسبة إلى مؤولها علامة قانون، ولو لم يكن للإستدلال (Raisonnement) بعد سيكلوجي لسماه "بيرس" به، ولأن البرهان

([1]) المرجع السابق،ص:56

ثالثي بسبب مبدأ "تراتبية المقولات"، فإنّه التعبير المختصر للعلامة التامة: أي العلامة العرفية الرمزية البرهانية.

ويمكن تلخيص الأبعاد الثلاثة المذكورة، وتفريعاتها المترتبة عن علاقتها بالمقولات الثلاث على الجدول الآتي:

	العلامـــــة	**الموضوع**	**المؤول**
الممثل باعتباره علامة	علامة طبيعية نوعية	علامة متفردة (عقلية)	علامة عرفية
العلامة بالنظر إلى الموضوع	أيقونة	مؤشر/شاهـــد	رمز
العلامة بالنظر إلى المؤولة	تصور	تصديق	حجة

ولا يمكن أن تقوم العلامة إلا بوجود هذه العناصر الثلاثة مجتمعة، وهذا ما أسماه "بيرس" "**السيميوزيس** Semiosis"، وكل علامة من العلامات الثلاث المتقدمة ثلاثية الطابع، معنى هذا أن ثمة تسع علامات فرعية، ومن الناحية النظرية، نحصل على 33 أي على 27 صنفا من العلامات الممكنة إلّا أنّ "بيرس" اختصرها في عشرة أصناف هي: العلامة الوصفية الأيقونية الفدليلية (الشعور بالاحمرار مثلا)، والعلامة الفردية الأيقونية الفدليلية (رسم بياني معطى مثلا)، والعلامة الفردية القرينية الفدليلية (الصراخ التلقائي مثلا)، والعلامة الفردية القرينية الإخبارية (دوار الهواء مثلا)، والعلامة العرفية الأيقونية الفدليلية (رسم بياني عام مثلا)، والعلامة العرفية القرينية الفدليلية (اسم الإشارة مثلا)، والعلامة العرفية القرينية الإخبارية (صراخ في الزقاق مثلا)، والعلامة العرفية الرمزية الفدليلية (اسم عام مشترك مثلا)، والعلامة العرفية الرمزية الإخبارية (التحليل القياسي مثلا)، والعلامة العرفية الرمزية البرهانية (العلاقة التضمينية مثلا)، ويترتب عن ربط العلامات بعضها ببعض 66 نوعا من

العلامات السيميائية. ولكن الملاحظ أن الإهتمام الأكبر قد أنصب على الثلاثية الثانية المشكلة للبعد الدلالي،أي على العلامات الفرعية التالية: **الأيقونـــــة والقريـــنة والرمـــــز**.

وأخيرا يمكن القول أنّ سيميوطيقا "بيرس" ليست مجرد أدوات إجرائية يمكن استثمارها في قراءة ظواهر معينة، لكنها بالإضافة إلى ذلك تصور متكامل للكون، الذي هو سلسلة لا متناهية من الأنساق السيميائية، إذ يستحيل فصل العلامة عن الواقع، لأن هذا الأخير عبارة عن سلسلة من العلامات التي لا تنفك تحيل على علامات جديدة تدرج ضمن سلسلة أخرى من الإحالات وهكذا دواليك.